الشبهة السابعة

تدعى وجود تناقض بين آية سورة [الأعراف: ٢٨] التى تنهى عن الفحشاء ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. . وبين آية [الإسراء: ١٦] ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾!!.

● وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

إن هذه الشبهة هى نموذج للجهل والغباء اللذين يسيطران على أصحاب هذه الشبهات. وذلك لأنه لا صحة للقول بأن الآية الثانية تأمر بالفحشاء. . ومن ثم فلا علاقة بين الآيتين حتى تكون هناك شبهة، أو حتى شبهة شبهة!.

إن الفحش والفاحشة -التى تنهى عنها آية الأعراف- هى ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. . وما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. .

وغير متصور، فى أى شرع أو عقل أو منطق، أن يأمر الله- سبحانه وتعالى- بالفاحشة بأى حال من الأحوال ولا فى أى تصور من التصورات. . ذلك أن الأمر بالفاحشة إنما يقدح فى كرامة الإنسان وعدالته، فما بالنا بالخالق المتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال؟!.

وآية سورة الأعراف -التى أوردت الشبهة جزءها الأخير- يتحدث جزءها الأول عن أن الكفار الذين مردوا على فعل الفاحشة قد ورثوها عن آبائهم، الذين لم يأتهم نذير.. ومن ثم لم يأمرهم إله بفعل هذه الفاحشة.. ولقد زعم الجيل الذى خلف هؤلاء الآباء وورث عنهم فعل الفاحشة.. زعم أن الله قد أمرهم بفعل الفاحشة.. ولقد ردت عليهم الآية بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وأن زعمهم هذا هو قول وتقوُّل على الله بما لا يعلمون.. أى افتراء لا يستند إلى أى علم: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفى كل الآيات القرآنية التى تحدثت عن الفاحشة والفواحش، تأكيد على أن الذى يأمر بالفاحشة هو الشيطان -وليس الله، كما يزعم أصحاب هذه الشبهة العجيبة الذين تبنوا قول المشركين!.. ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦٨].. فالشيطان هو الذى يأمر بالفحشاء.. وعلى العكس من أوامره ووعوده تكون أوامر الله ووعوده- سبحانه وتعالى- ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

هذا هو الموقف القرآنى الواضح والحاسم والدائم من الفاحشة: النهى عن إتيانها والتحذير من فعلها. والتنبيه على أنها من غوايات الشيطان وأوامره- وهو العدو المبين للإنسان-.

● أما آية سورة [الإسراء: ١٦] التى زعم أصحاب هذه الشبهة أنها تحمل أمر الله سبحانه وتعالى- بفعل الفاحشة!!... فإنها واردة فى سياق آخر.. ومعنى آخر.. وقضية أخرى، لا علاقة لها بالموقف من الفاحشة، على الإطلاق.. إذ هى تتحدث عن سنة من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى: سنة هلاك الأمم والشعوب والحضارات إذا ساد فى حكمها وحكامها الترف والمترفون -المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش- لأن هذا الترف إنما يقود أهله إلى الفسوق- أى الخروج عن حد الشرع- والفسق- فى المصطلح الإسلامى- أعم من الكفر، كما أن الظلم أعم من الفسق-.. فإذا سيطر المترفون على أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات، كان ذلك إيذانًا بإعمال سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى- سنة وقانون الهلاك والدمار والانحلال» التى تأتى على العمران والازدهار الحضارى..

وسياق الآية- آية الإسراء: ١٧ الذى تجاهله أو غفل عنه أصحاب هذه الشبهة- يقطع بأن هذا الترف الذى قاد أصحابه إلى الفسوق ثم الهلاك - إنما هو اختيارهم وفعلهم، وليس أمرًا من الله -سبحانه وتعالى: ﴿ **مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٥-١٧].

- لقد بعث الله فيهم الرسل والأنبياء، فبلغتهم الدعوة، وقامت عليهم الحجة، وزالت عنهم الشبهة.

- والذين اختاروا منهم الهدى قد اختاروا بأنفسهم لأنفسهم.. وكذلك الذين ضلوا إنما كان ضلالهم من أنفسهم على أنفسهم، إذا لا تزر وازرة وزر أخرى.

- وإذا كان القرآن الكريم قاطعًا وحاسمًا وواضحًا فى أن الله لا يأمر بالفحشاء:

إذ الذى يأمر بها هو الشيطان - فإن الله -سبحانه وتعالى- لا يأمر بالترف ولا بالفسوق.. والمترفون كانوا دائمًا وابدًا- وعبر كل الرسالات السماوية- هم المتمردون على أوامر الله وتعاليم رسله وأنبيائه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [سبأ: ٣٤].

ولو اتبع أصحاب هذه الشبهة المنطق المجرد -الذى يجعل أمر الله عباده بالفسق مستحيلا، عقلا ونقلا، ولو أنهم رجعوا إلي تفاسير القرآن الكريم لعلموا أن الله -سبحانه وتعالى- إنما أمر هؤلاء القوم بالأعمال الصالحة، وهى الإيمان والطاعة، وأن هؤلاء القوم هم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى عنادًا منهم، ثم أقدموا على الفسق، فقامت فيهم وتحققت سنة الهلاك والدمار..

وبعبارة الإمام فخر الدين الرازى [٥٤٤-٦٠٤هـ ١٤٩٩-١٢٠٧م]: «فإن الله تعالى لا يظهر العذاب إلا بعد بعث الرسول -

ﷺ- الذي يأتى بالأمر بالأعمال الصالحة.. وأنه إذا بعث الرسول فكذّب به الناس لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين على الذنوب، فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال»[1].

فالأمر بالفحشاء هو صنيع الشيطان - يتنزه عنه الله- سبحانه وتعالى- بالعقل والنقل جميعًا-- .. والآيات التى تتحدث عن سنة الهلاك والدمار للأمم والحضارات التى ساد فيها المترفون الفاسقون، لا تشير- ولا يمكن أن تشير- إلى أن الله هو الذى أمر بالترف والفسوق، لأن الترف والفسوق هما اختيار المترفين الفاسقين، الذين سقطوا فيهما مخالفين لأمر الله، ومعاندين لتعاليم الأنبياء والمرسلين الذين بلّغوا رسالات الله.

●●●

(١) الرازى [مفاتيح الغيب] ج ٢٠ ص ١٤٦-١٤٨. طبعة دار الفكر- بيروت سنة ٢٠٠٥م.

الشبهة الثامنة

هى الزعم بوقوع تناقض - فى القرآن الكريم- بين آية سورة [البلد: ١] ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ . . وبين آية سورة [التين: ٣] ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ .

ففى الأولى- على زعم أصحاب هذه الشبهة- نفى للقسم بمكة المكرمة . . وفى الثانية قسم بهذا البلد الأمين -مكة المكرمة .

● وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

إن هذه الشبهة دليل صارخ على أن أصحابها هم «خواجات» لا علاقة لهم باللغة العربية، فضلا عن أساليب القرآن الكريم- الذى جاء بلسان عربى مبين - . . فآية سورة البلد لا تنفى القسم بالبلد الأمين -مكة المكرمة- وإنما تؤكد وتعظم هذا القسم . . وحرف «لا» ليس للنفى . . وإنما هو تعبير عربى لتأكيد القسم - وليس لنفيه- وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م]:

«فهى عبارة من عبارات العرب فى القَسَم، يراد بها تأكيد الخبر، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم. ويقال إنه يُؤتى بها -«لا»- فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به.

كأن القائل يقول: إنى لا أعظمه بالقسم، لأنه عظيم فى نفسه والمعنى فى كل حال على القسم. وقال تعالى: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الواقعة: ٧٥: ٧٧][1].

فالعبارة قسم.. وليست نفيًا للقسم.. ومن ثم فإنها متسقة مع آية القسم بالبلد الأمين -مكة المكرمة- الواردة فى [سورة التين: ٣] ﴿ **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾.

-ولا وجود لهذا التناقض الذى توهمه هؤلاء «الخواجات» المساكين الذين يخوضون فيما لا يعرفون.. ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون!.

●●●

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج٥ ص٣٣٠.

obeikandl.com

الشبهة التاسعة

تدّعى وجود تناقض -فى القرآن الكريم- بين النهى عن النفاق وبين الإكراه على النفاق.

***

● وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

أ- إن الآيات التى أوردها أصحاب هذه الشبهة جميعها تحرم النفاق وتجرمه وتنهى عنه.. وليس فيها آية واحدة تتحدث عن جواز النفاق عند الإكراه عليه. وحتى يتأكد القارئ من قولنا هذا فإننا نورد الآيات السبع التى أوردها أصحاب هذه الشبهة، وهى:

١- ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

٢- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

٣- ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

٤- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٤- ١٦].

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠- ١٢].

٧- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ب- ثم إن العبارة التى أوردتها الشبهة للإمام البيضاوى [٧٩١هـ- ١٣٨٩م]، والتى جاءت فى تفسيره لآيات سورة المجادلة، قد جاءت

فى تفسير الآيات التى تتحدث عن المنافقين: الذين اتخذوا «أيْمانهم» - التى يقسمون بها- أو «إيمانهم» -الذى يظهرونه- وقاية لهم دون دمائهم وأموالهم[1].. ولا تتحدث عن الإكراه على النفاق -الذى أراد أصحاب الشبهة الحديث عنه!.

جـ- وهذا الإكراه على النفاق -مع بقاء القلب مطمئنا بالإيمان- قد جاء الحديث عنه فى آيات سورة النحل: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٥، ١٠٦].

وهذه الآيات -آيات الإكراه على النفاق- مع بقاء القلب مطمئنا إلى الإيمان- وردت فى قصة عمار بن ياسر [٥٧ق.هـ-٣٧هـ-٥٦-٦٥٧م].. وهذا الإكراه ليس نقيضا للنهى عن النفاق وتحريمه وتجريمه، لأنه ليس داخلا فى حقيقة النفاق- الذى هو مرض قلبى، غير مرهون بالإكراه-.. فما جاءت به هذه الشبهة هو لون من الجهالة والتخليط.

ولولا أن القوم يعرضون مثل هذا «الكلام» على جمهور غير متخصص، ومن ثَمَّ غير قادر على كشف الجهالات والتخليط، لمادعت الدواعى للرد على مثل هذه «الشبهات»!.

●●●

(١) البيضاوى [تفسير البيضاوى] ص٧٥١، ٧٥٢. طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م.

الشبهة العاشرة

تدعى وجود تناقض -بالقرآن الكريم- بين «النهى عن الهوى» ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. وبين ما زعمته الشبهة من هوى أباحه رسول الإسلام ﷺ لنفسه ولقومه.. مثل:

١- الزواج والدخول بالسبايا -الأسيرات- دون تطليقهن من أزواجهن.

٢- إباحة زواج الرسول ﷺ بمن تهواه، ووهبت نفسها له ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٣- وجعل النساء -الحور العين- أمل المؤمنين فى المستقبل- فى الجنة- ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٢-٧٦].

***

● **وفى الرد على هذه الشبهة نقول:**

أولا: بالنسبة للسبى والسبايا -أى الإماء.. والرق والاسترقاق-.. فإنه نظام اجتماعى قديم، عرفته الحضارات المختلفة منذ عصور موغلة فى التاريخ القديم..

وفى الكتاب الذى يقدسه ويتعبد به اليهود والنصارى- [العهد القديم]- وهو المقدس عند أصحاب هذه الشبهات:- نجدهم ينسبون إلى نبى الله سليمان -عليه السلام- [القرن العاشر ق.م]- أن هواه وقلبه كانا مع النساء -الحرائر منهن والإماء- السرارى- وأنه قد جمع فى ذمته سبعمائة من السيدات وثلثمائة من السرارى- أى ألف امرأة!!-.. الكثيرات منهن مشركات يعبدن الأوثان.. حتى لقد جذب هواهن سليمان إلى عبادة الأوثان!!.

وبنص هذا الكتاب «المقدس»:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، موآبيات وعمونيات وأروميات وصيدونيات وحيثيات، ومن الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلوا إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهولاء بالمحبة.

وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلثمائة من السرارى، فأمالت نساؤه قلبه. وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين.. وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل تجاه أورشليم، ولموتك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»- سفر الملوك الأول١١: ١-٩-.

كما كان لإبراهيم -عليه السلام- أبو الأنبياء [فى القرن التاسع عشر ق.م] -سرية- هى هاجر- التى ولدت له إسماعيل -عليه السلام-.

هكذا كان الرق والاسترقاق.. وكان السبى وكانت السبايا فى التاريخ الإنسانى القديم.. حتى لقد صور [العهد القديم] هذه الصورة الغريبة لبيت سليمان -عليه السلام-.. وكذلك كان الاسترقاق أساسا فى الاقتصاد والاجتماع فى الحضارات القديمة، الفرعونية.. والفارسية.. وغيرها من الحضارات..

ولقد استرقت الدولة الرومانية -عبر تاريخها الطويل.. فى عهد وثنيتها وفى عهد تنصّرها- الأمم والشعوب التى وقعت تحت نير الاستعمار الرومانى.. وشهير فى ذلك التاريخ القهر والظلم الذى فرضه الرومان على الرقيق -عبيدا وإماء-.. وشهيرة فى ذلك التاريخ ثورة العبيد -بقيادة «اسبارتا كوس» [٧٣-٧١ق.م]- وما سال فيها من دماء..

ولقد باركت الكنائس الغربية أسْر عشرات الملايين من الزنوج الأفارقة -رجالا ونساء- لتقوم على دمائهم وعظامهم رفاهية الرجل الأبيض فى أوربا وأمريكا!..

ولقد ظل نظام الرق فى الغرب المسيحى قاعدة من قواعد الإنتاج الاقتصادى، وركيزة من ركائز العلاقات الاجتماعية حتى القرن التاسع عشر الميلادى.. وحتى بعد إلغاء الرق- لتحويل العبيد إلى عمال مهرة

فى آلة الإنتاج الرأسمالى، بعد أن عمهم الكسل واليأس فى ظل الإقطاع- ظلت التفرقة العنصرية والتمييز بسبب اللون منتشرة وحاكمة إلى عقود النصف الثانى من القرن العشرين.

ثانيا: عندما ظهر الإسلام وجد ميراثا ثقيلا ومتجذرا فى الرق والاسترقاق.. وجد العديد من العوامل والأسباب التى تمد «نهر الرق والاسترقاق» بالمزيد والمزيد من الأرقاء.. وذلك من مثل:

١- **الحرب:** بصرف النظر عن حظها من الشرعية والمشروعية، فالأسرى يحولون إلى أرقاء، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء.

٢- **والخطف:** يتحول به المخطوفون إلى رقيق.

٣- **والإغارات:** التى لا تبتغى سوى الكيد والسلب والنهب وأسر الرجال والنساء لبيعهم فى أسواق النخاسة وتجارة الاسترقاق.

٤- **وارتكاب الجرائم الخطيرة:** كالقتل والسرقة والزنا، والتى كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق.

٥- **والعجز عن سداد الديون:** كان يحول الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى المرابين والأغنياء الدائنين.

٦- **وسلطان الوالد على أولاده:** كان يبيح له أن يبيع هؤلاء الأولاد، فينتقلون من الحرية إلى العبودية.

٧- **وسلطان الإنسان على نفسه:** كان يبيح له بيع حريته فيتحول إلى رقيق.

٨- **وكذلك النسل** المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقا، حتى ولو كان أبوه حرا.

ومع كثرة واتساع هذه الروافد والمصادر التى تمد «نهر الرقيق»- فى كل وقت- بالمزيد والمزيد من الأرقاء، كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماما، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها.

وأمام هذا الواقع المتجذر -فى ميدان الرق والاسترقاق- أحدث الإسلام «ثورة- إصلاحية- تدريجية» لتحرير الرقيق وتصفية نظام الاسترقاق- وذلك لأول مرة فى التاريخ- فأغلق كل الروافد التى كانت تمد نهر الرقيق بالمزيد والمزيد.. ولم يبق منها سوى أسرى الحرب الشرعية والمشروعة -أى الحرب الدفاعية-.. وحتى أسرى هذه الحرب المشروعة فتح الإسلام أمامهم باب الحرية بالمن أو الفداء ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ [محمد: ٤].

ومع إغلاق الروافد والمصادر، التفت الإسلام -ونظامه الاجتماعى- إلى «كتلة» الرقيق ليعمل على تفكيكها وتصفيتها وتحرير أسراها.. فأكثر من «مصاب التحرير»، ووسع هذه «المصاب».. فبالقيم الإسلامية أصبح تحرير الأرقاء قُربة يتقرب الإنسان به إلى الله، حتى أن تحرير كل عضو من أعضاء الرقيق هو سبيل لتحرير عضو من أعضاء العاملين على تحرير هؤلاء الأرقاء من عذاب النار يوم الدين.. كما جعل الإسلام من تحرير الأرقاء الفداء والكفارة من كثير من الذنوب التى يقع

فيها الإنسان.. وجعل مصرفا من مصاريف الزكاة مرصودًا لشراء الأرقاء وتحريرهم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفى هذا التكليف الذى تنهض به الدولة الإسلامية -والذى يعالج الفقر والمسكنة وسداد الديون- إغلاق لكثير من الروافد والمصادر التى كانت تمد نهر الرقيق بالمزيد والمزيد صباح مساء -فضلا عما فيه من جعل تحرير الرقيق جزاء من أركان الإسلام، الذى تنهض الدولة بتنظيمه، ولا تتركه- فقط- لمبادرات الأفراد.

بل لقد امتد النظام الإسلامى إلى رعاية الأرقاء بعد تحريرهم، فلم يتركهم للضياع، وإنما دمجهم- بالولاء- فى القبائل والعشائر والعائلات التى كانوا أرقاء فيها، فغدوا أحرارًا لهم ما لهذه الوحدات الاجتماعية من العزة والعصبية التى ترتبها الأنساب.. إذ «الولاء لحمة كلحمة النسب لايباع ولا يوهب»- كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه الدارمى -وبهذا التحرير، وبهذا التنظيم الاجتماعى أصبح الرقيق -بعد تحريرهم- سادة.. وقال عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ-٢٣هـ/٥٨٤-٦٤٤م]- وهو من هو- عن بلال الحبشى- [٢٠هـ-٦٤١م]، بعد أن حرره أبو بكر الصديق [٥١ق.هـ ١٣هـ/٥٧٣-٦٣٤م]: «سيدنا أعتق سيدنا»!.. وأصبحت مكانة «سالم» مولى أبى حذيفة» [١٢هـ/٦٣٣م]- بعد تحرره بحيث يتمنى عمر بن الخطاب أن يكون حيا ليتولى الخلافة فى دولة الإسلام!..

ومع كل هذا وفوقه، أحدث الإسلام ثورة ضد نظام الاسترقاق كنظام اجتماعى واقتصادى ظل لقرون طويلة مصدر الاستغلال والثراء، وذلك عندما ساوى الإسلام فى الحقوق الدينية وفى كثير من الحقوق المدنية بين الأرقاء والأحرار.. وعندما وضع الكثير من ممارسات الجور والظلم التى كانت تمارس مع الأرقاء، حتى لقد حبذ إلغاء ألقاب «العبد» و «الأمة»، ليحل محلها «الفتى» و«الفتاة»، وفرض على السادة أن يساووا بين أرقائهم وبينهم فى المأكل والملبس، وأن لا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون.. ولم يبق من ألوان التمييز -تقريبا- إلا ما يخفف عن الأرقاء، بسبب قيود الرق على الحرية.. حتى لقد حول الإسلام الرق والاسترقاق إلى «عبء مالى» بعد أن كان مصدرًا رئيسيا من مصادر الكسب والاستغلال والثراء، الأمر الذى أحل الزهد فى الاسترقاق محل النهم والطمع فيه.

ثالثا: أما التسرى، ومعاشرة الأسيرات والإماء من قبل مُلاكهن معاشرة الأزواج -والذى تحاول هذه الشبهة غمز الإسلام فيه- ففضلا عن أنه نظام قديم قدم الرق والاسترقاق، وليس اختراعا ابتدعته الشريعة الإسلامية -فإن الإسلام قد جعله نظاما اجتماعيا وأُسريا يحقق العفة والإشباع الجنسى للسرية، ويفتح أمامها وأمام نسلها باب العتق والتحرير.. فإذا ولدت الأمة من سيدها يصبح أولادها أحرارًا -على عكس الحال فيما قبل الإسلام وفى خارج إطار الإسلام -كما ترتفع هى- بالولادة- إلى مرتبة «أم الولد»، وتصير حرة بعد موت مالكها.

ولقد سميت الأَمَة التى يختارها مـالكها سرية له- سميت «سرية»- لأنها موضع سروره، ولأنه يجعلهـا فى حال تسرها دون سواها أو أكثر من سواها.. فالغـرض من التسرى ليس مجرد إشبـاع غرائز الرجال، وإنما أيضًا الارتفاع بالسرية إلى ما يقرب كثيرا من منزلة الزوجة الحرة.. وتحقيق عفتها..

وبعد أن كانت الشرائع والحضـارات السابقة على الإسلام لا تضع حدًا لعدد السـرارى اللواتى يعاشرهن مالكهن وقف أمـر التسرِّى فى صدر الإسـلام عند سرية واحدة... واشـترط بعض الفقـهاء أن لا يزيد عـدد السرارى عن أربعة -مـثل الزوجات الحـرائر- أو أن يقف العدد عند الأربعة من الحرائر والسرارى معا.. وفى عدل الرجل بين نسـائه، قال بعض الفـقهـاء: إن مـا يجب للزوجة الحـرة يُستـحب للسرية.. وجعل فقهاء الحنابلة الإحصان للأرقاء- ذكورا وإناثا- أمرا واجبا، لأن المقصد مـن التسرى- كما يقول الفقهـاء- هو «استعفاف مالك الأمة.. وتحصين الإماء لكيـلا يملن إلى الفجور، وثبوت نسب أولادهن».

ولقد اشترطـت الشريعة الإسلامية لجواز التـسرى أن لا تكون الأَمَة مسروقة أو مغصوبة.. وأن تكون مسلمـة أو كتابية إذا كان المتسرى بها مسلما..

رابعًا: أما الفرية التى تـفتريها هذه الشبهة على الإسـلام وشريعته، والتى تدعى أن رسول الإسـلام ﷺ «قد أباح لأتبـاعه القيـام بالغارات

الدينية والدخـول على الأسيرات دون تطليقهـن من أزراجهن». . فهى فرية مصـدرها الجهل المركب والبغض الذى يعمى أصحـابه عن حقائق الإسلام. . ذلك أن كل حروب الإسلام كانت دفـاعا عن العقيدة- التى فتنهم فيها المشركون -وعن الوطن- الذى أقاموه بالمدينة المنورة- بعد أن أخـرجهم المشـركون من وطنهـم مكة-. . ولم يعرف الإسـلام -عبـر تاريخـه- «الغارات والحـروب الدينيـة»، التى دامت قرونا فى الغـرب المسيحى، وداخل المسيحيـة ذاتها- بين الكاثوليك والبروتستانت- والتى أبيد فيهـا عشرة ملايين مسيـحى. . أو ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا!- . . بينما لم تتعدى ضحايا كل حروب الرسول -ﷺ الدفاعية من جانبه والعدوانية من جانب الشرك- ٣٨٦ ضحية من الجانبين!. .

وليس صـحيـحا مـا افتـرته الشبـهة من أن المسلمين كـانوا يدخلون بالأسيرات السرارى فور أسرهن، وهن على ذمة أزواجهن. . فمنذ عصر النبوة اشتـرطت السنة النبوية للدخول بالسرية براءة رحـمها- بالوضع إن كـانت حامـلا. . أو بالحيض والطهـر إذا كانت غـير حـامل- وفى هذا التـشريع قـال رسـول الله ﷺ يوم حنين سنة ٨هـ-٦٣٠م- فى سـبى أوطاس: «لا توطأ حامل حـتى تضع، ولا غير ذات حمل حـتى تحيض حيضة»- رواه أبو داود-. . وذلك حتى يبرأ رحمها قبل الدخول بها.

ولقد اشـترط فقـهاء المذهب الحنفى للدخـول بالسرية أن يهـيئ لها مالكها منزلا خاصا بها، كما هو الحال مع الزوجة الحرة.

وعقب غزوة خيبر سنة ٧هـ-٦٢٨م بنى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيى بن أخطب، بعد أن دفعها إلى أم سليم تهيئها، وبعد أن حاضت حيضة برئ بها رحمها.. وكان تحريره لها، وبناؤه بها، تكريما لها، ورفعا لمقامها، بإدخالها فى بيت النبوة ورئاسة الدولة والأُمة.

ولقد كانت علاقات الزوجية بالسبايا المتزوجات من المحاربين غير المسلمين، تنقطع، إما بمقتل أزواجهن.. أو بإسلامهن.. أو بالواقع الذى أنشأته الحرب، والذى فرق بينهن وبين أزواجهن السابقين تفريقا أبديا، بعد أن دخلن فى أُمّة أخرى ومجتمع مختلف ودين جديد..

خامسا: أما ذهاب أصحاب هذه الشبهة إلى غمز الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ بالقول إنه «أباح لنفسه الزواج بمن تهواه ويهواها بلا قيد أو شرط فوق زوجاته العديدات وفوق ما ملكت يمينه».. فهو كذب وافتراء تدحضه حقائق تاريخ الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ:

لقد عاش الرسول ﷺ كل مراحل شبابه مع زوجة واحدة.. وهى خديجة [٦٨ق.هـ-٣ ق.هـ- ٥٥٦-٦٢٠م]- التى كانت تكبره بخمسة عشر عاما.. ولم يتزوج بعد وفاتها- وتتعدد زوجاته إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره.. وبعد أن حمل كل هموم الدولة.. والدفاع عنها فى عشرين غزوة وسرية فى تسع سنوات!.. وبعد أن حمل هموم السياسة الخارجية.. فضلا عن هموم إقامة الدين.. وتغيير الثقافة والحضارة ومجرى التاريخ.. ففى هذه السنوات العشر السابقة على

وفاته، وفى ظل هذه المهام الجسام التى استغرقت كل أوقاته وملكاته وطاقاته، كان تعدد زوجاته -عليه السلام-.

ثم.. إنه ﷺ منذ بعثه وحتى وفاته- كان يقوم الليل إلا قليلا.. حتى تتورم قدماه من القيام بين يدى مولاه، وكان يتغلب على آلام تورم أقدامه بحلاوة الإيمان!.. ومن كان فى هذه النوعية من الحياة الربانية، التى حمّله ربه فيها عبء تغيير الدنيا والدين ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل: ٥]،ليس هو ذلك الذى تتحدث الشبهة عن غرامه وهواه بالزواج والزوجات..

ولقد عرف عنه ﷺ عتقه وتحريره لكل من دخل فى ملك يمينه من الأرقاء.

سادسا: أما حكاية المرأة المؤمنة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ والتى أباح القرآن الكريم له أن يتزوجها إذا أراد -جاعلا ذلك خصوصية له: ﴿**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فيجب أن ينظر إليها فى إطار حالات كثير من زوجات الرسول ﷺ اللواتى كن يتطلعن إلى شرف العيش فى بيت النبوة، دون تطلع إلى شهوات الحياة الجنسية.. واللواتى ضمهن الرسول ﷺ إلى بيت النبوة تكريما لتضحياتهن أو تضحيات أزواجهن السابقين الذين ضحوا تضحيات متميزة واستشهدوا فى سبيل الله.

فهـذه المرأة المؤمنة، التى تطلعت إلى حـيازة شرف العـيش فى بيت النبـوة ورئاسة الدولة، ووهـبت نفسـها للنـبى -زوجة- آملة أن يقـبل هبتهـا- بعد أن وقف التشريع الإلهى بتعدد زوجـات الرسول عند الحد الأقصى- أراد الـقرآن الكريم. بذكرهـا أن يشرع جعل هبـة هذه المرأة نفـسهـا المقابل لصـداقهـا- ذلك الصـداق الذى أخذته كل زوجـة من زوجاته- عليه الصلاة والسلام-.

تلك هى قصة هذه المرأة المؤمنة.. وهذا هو المقـصد التشريعى الذى من أجله جـاء ذكرها فى القـرآن الكريم.. ولا علاقـة لشىء من ذلك الذى حدث أواخر حياة النبى ﷺ بشىء من ذلك الغمز والافتراء الذى تطلق عليه الشبهة «الهوى بالزواج»!.

سابـعًا: أمـا حديث الشـبهـة عن الحـور العين -فى الجنة- ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ**﴾ [الرحمن: ٧٢-٧٦].. فهو حديث عن لون من ألوان النعيم الذى أعده الله سـبحانه وتعالى للصالحين والصالحـات من عباده فى جنات النعيم.. وهو -ككل مفردات عالم الغيب- يجب أن يفوض علم الجوهر والكُنه والحقيقة فيه إلى الله-سبحانه وتعالى- إذ أن حقائق هـذا الـعـالم الغـيبى الأخروى هـى مما لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر.. ومن ضيق الأفق قياس الغائب على الشاهد

فى مثل هذه الأمور التى ضرب الله لنا فيها الأمثال، تقريبا لصورتها، مع استئثاره سبحانه- بعلم كُنهها وحقيقتها وجوهرها، الذى لا قبل للعقل -نسبى الإدراك- بمعرفة المآلات فيها.. بل ولا قبل للغة- التى هى مواضعات بشرية- بالتعبير عن حقائقها وكُنهها : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وأخيرًا.. أليس من الغريب والعجيب -بل والمريب- أن يأتى غمز الحياة الزوجية لمن كان يقوم الليل إلا قليلاً، من الذين غرق أحبارهم وكرادلتهم وأساقفتهم فى الشذوذ الجنسى مع الأطفال؟!..

أم أن فقدان الحياء يرفع سقف الافتراء على هذا النحو الغريب والعجيب؟!.

●●●